غيـــــــــــبـوبــــــــــة

في هذا الظهير الصحراوي الذي يحد قريتنا من الناحية الجنوبية بعيدا عن أعين الناس اعتدت الاجتماع بصديقي المقرب فارس زميلي في المرحلة الإعدادية الذي فقد والده منذ عامين ويعيش مع أمه وأختيه في هذا البيت الواسع الذي يتميزعما سواه من المنازل المجاورة في قريتنا حيث كان يعمل والده في وظيفة مهمة طالما حدثني عنها فارس ؛ ولكنني لم أكن أعتني كثيرا بهذه الوظيفة كل ما كان يهمني وأفهمه من حديثه أنها وظيفة جعلتهم في حالة مادية أعلى منا بكثير فمرتب أبي في التدريس لا يساوي نصف ما يتقاضاه فارس وأخته من معاش أبيهما الآن

وطالما عول كثيرا على أيام أبيه الذي كان يتقاضى أضعاف ما يأخذونه الآن وكان يتركهم كثيرا للسفر للقاهرة – التي فقد حياته إثر حادث عودة من عمله ذات مساء- ، وكان لا يقيم معهم إلا أيام العطلات الرسمية على عكس والدي المقيم الدائم والمراقب لكل تحركاتي والسائل عن كل شاردة وواردة...

وكثيرا يحدثني عن أمه التي تعمل مدرِّسة في نفس مدرسة أبي وانشغالها الدائم بحصص الدروس التي لاتنقطع ، فالطلبة بين رائح وغاد ، وفي أيام العطلة تفتعل المشكلات مع أبيه لأتفه الأسباب ، كأن هناك سر غامض لا يفهمه هو ولا أخوته فأباه كان يوفر لها كل ما تريد... طالما لبى رغباتها في الفسح والخروجات... كثيرا ما جاء محملا بالهدايا وخاصة تلك الشيكولاتة المحببة لديها ...أو تلك الملابس التي تبدي مفاتنها وأدوات التجميل التي تمتلئ بها غرفتها وتجعلها كفنانات السينما ليوحي إليها أنها المدللة المحببة...

وقتها أتذكر أمي التي لا تكاد تخرج من مطبخها إلى الحمام بين الطبخ والغسيل وإلقاء النصائح بالهدوء التام فأبوكم متعب ويحتاج إلى الراحة ، أغلق التلفاز جارنا عم حنفي عنده حالة وفاة والدته ولا يصح أن يعمل التليفزيون مراعاة لمشاعرهم .

بيتنا بسيط لكنه نظيف وهادئ لأنه فارغ من كل مقومات الحياة تشعر أن حوائطه تلعن سوء حظها أنها أصبحت ملكا لهذه الأسرة ، أبوابه اشتكت حالها لبارئها ، دولاب أمي دائما فاتح فمه مبتسما لكل من هب ودب ؛ لأنه بدون دلف أصلا منذ سنوات ، لا أكاد تخطو قدمي عتبة الباب حتى أسمع تلك الأنشودة ممن تطالب بأن يعم الهدوء أرجاء المعمورة ...

- أنت شرفت يافالح ... البيه مفتحش كتاب النهاردة ... روحت الكتّاب...
- أيوة روحت يا ماما
- أنت وفارس طبعا ...شوفلك حل مع الزفت ده ... أنا زهقت ... أنا هسيبلكم البيت...
- عادل...عادل ايه بتفكر في ايه ؟ أنت بدمع؟ بتعيط ليه؟
- فارس؟ ما سبب تأخرك ؟
- أبدا أمي كالعادة رايح فين ؟ رايح الجبل ألعب مع أصحابي كرة
- جبت المعلوم؟
- آه ... مالك؟
- لا شئ ... جرار زراعي مار من هنا حاملا أسباخ (روث الحيوانات) مسرعا يبدو أن ذرات التراب أصابت عيني
- أعطني السيجارة
- ايه يلا ورا التبة علشان هنا العيال اللي بيلعبه كرة هيشوفونا وأبوك لو عرف أو أمي الدنيا هتتهد على رؤوسنا واحنا مش ناقصين...
- يا عم هات أبويا فايق لحاجة هو ولا أمك طول اليوم بيحبوا بعض على النت... يا عم هات
- ههههه ايوة كدة بتتكلم زينا أهو ...خد السيجارة أهي

عارف ياعادل أنا هتجنن أبوك في الفصل مدرس بكل ما تحمل الكلمة ، أب روحي للبليد قبل الشاطر... للبعيد قبل القريب... نصايحه تحس أنها صادقة تدخل قلبك من أول لحظة ، في المجتمع محبوب من كل اللي حواليه، الكل

بيستشيره في أمورهم ، بس هو شخص غامض ، تحس أنه شايل جبل متلاحظهوش من بعيد إلا حزينا مهموما ، تقرب منه تكلمه يبتسم ويتواضع معك ، ويسمع منك كأنه أخوك صاحبك ، وفي الآخر محب متيم ومع مين ؟! مع أمي بالله عليك مش غريبة الإزدواجية دي ؟! وحتى لو مش مع أمي كنت برضو هستغرب مستر سيد؟! .... محركا رأسه مستنكرا

هنا أشعلت سيجارتي وأخذت منها نفسا عميقا ونفثت به في وجه فارس ملأ الجو كأنه مدخنة مصنع الطوب الأحمر القابع على بعد مئات أمتار وقلت له:

- يا عزيزي كلنا في غيبوبة المجتمع الذي يطلب من أمك أن تربيك وتحنو عليك أنت وأخوتك بعد موت والدك ، وتدفن أنوثتها التي لا أشك للحظة أنه استمتعت بها يوما مع أبيك ، بل كانت السبب الأوحد وراء افتعالها مشكلات مع والدك ...

أمك يا عزيزي طالما تحسست جسدها بين الفينة والأخرى تنسى أحيانا أنها في الفصل أمام طلاب في بدايات سن البلوغ

طالما تاهت في هاتفها ثم تنهدت كأنها تريد أن تخرج حملا جاث على صدرها يقتلها ، أشعر بها أنها تريد أن تمسك سيفا بتارا وتقتل تلك القيود التي تكبح غريزتها المدفونة والمكبوتة ، المحكوم عليها قسرا بالموت كأنها ليست أنثى... ثم أخذت نفسا أطول من الأول بكثير...

- عارف يا عادل بتعجبني لما دماغك تشعشع وتتكلم بالنحوي كأنك أبو جهل وبتقول حكم كأنك أبو لهب أنت بتجيب الكلام اللي أكبر من سنك ده منين
- أبو جهل وأبو لهب ؟! هؤلاء قمة الهرم في العلم عندك ماذا أقول لزعيم من زعماء الكفار مثلك هههههههههههههههه اشرب اشرب...

أنا قرأت كتبا بعدد هذه النجوم التي تخفيها أشعة الشمس وأظن أنها تخيفها أيضا ، لقد اضطررت لأقرأ كتبا وأستمع لقصص لست مؤهلا لها ، لا أنكر أنها غيرت في شخصيتي ، اضطررت أن أتحدث بلهجة فصيحة تكون سببا لسخرية كل من حولي وأنت أولهم

الكل في غيبوبة ، من يسخرون من لهجتي مغيبون ؛ لأنها اللهجة التي لابد أن تسود ، ولكنهم معذورون فلم تعتد أذنهم على مثلها ...

أبي مغيب عندما ظن أنه بفرضه قيما وإجبارنا على ما لا نطيق أمر لابد منه ، قد نقرأ ذلك يوما ، قد نتعلم هذه القيم بأسلوب تربوي هو نفسه يلقنه لكل تلاميذه بل وزملائه المعلمين ، مغيب عندما ظن أن من حقه أن يحب ويتغزل في زميلته التي أفضت إليه بحالها وسرها وسمع لبعضهما بما ينصحانا أن نبتعد عنه....

أبي مغيب عندما ظن أن من حوله لا يلاحظون ذلك وأولهم أنا وأخوتى السبعة فقد أصبح يخطأ في أسمائنا وهو من هو في ذاكرته فمثل أبي كتاب مفتوح يقرأه كل من يعرفه ...

أبي مغيب عندما ظن نفسه ملهما وقدوة وأنه ليس من جنس البشر، وحاول أن يدفن رومانسيته التي طالما ظهرت مع أمي التي لم تكن تعبأ بها أحيانا ، والتي كانت تحاول أن تجاريه إياها أحيانا لكن مفرمة الحياة ظلمتها هي الأخرى فلم تعد قادرة أن توازن بين الطرفين.

- وده برضه من الكتب يافيلسوف عصرك ههههه

بينما أأخذ نفسا أخيرا من سيجارتي التي اعتدت أن أشربها على ثلاثة أنفاس ، فأنا تربيت على الشكل لا المضمون ، طالما سألت نفسي أسئلة عديدة وسألتها والدي... ومعلمي ... وشيخي ... وكانت بعض الإجابات كفيلة بأن أكفر بربي وأبتعد عن درب الصالحين مثل الكثيرين ممن انحرفوا لولا قراءاتي وقناعاتي التي أجبرت عليها يوما ما...

- هههه على أساس إنك الحويني وأنت لسة رامي السيجارة ...
- لم أقل ذلك...، السيجارة خطأ قد أرتكبه لكنني أؤمن بربي لن أكفر...
- لا دي ذنب ... واللي حوالينا لو عرفوا ممكن يلسعونا بالنار
- أنت أيضا مغيب...؛ لأنك تظن أن نار أهلينا أشد من نار جهنم ، أنت معذور لأنك لم تؤمن بغيبيات ترى منظروها يرتكبوا أخطاء أفظع مما ترتكب أنت...

فكيف تقتنع بكلام أناس مخطئين مذنبين؟! ، أتعرف لماذا؟! لأنك نظرت إليهم على أنهم ملائكة وهم بشر يخطئون ويذنبون ويتوبون ...، ولكن عندهم ملكة النصح والقبول ورزقوا نعمة إمكانية النصح.

وأنا مغيب عندما ظننت أن أبي وأمي مخطئون في تصرفهم معي ومع أخوتي ، ونسيت أنها فطرة الأبوة التي لا تفارق القلب فلم ينصح الرب الأب بأن يرعى ولده لأنها فطرة لا تحتاج لأمر ولا نهي...

ولكنني معذور لأنني مراهق عندى احتياجات وبداخلي طاقات وجيلي غير جيل أبي وظروفي غير ظروف أبي ، من حقه النصح والخوف كأب ، ولكن من حقي الحرية في قرارتي لا الفوضى طبعا

أمي مغيبة عندما ظلمت نفسها وعاشت زمن سي السيد وأمينة في زمن التكنولوجيا ، ولكنها معذورة لأنها محبة مقدرة للعشرة ابتليت بكثرة الإنجاب الذي اعتبره أبي سنة لابد منها

أمك مغيبة عندما رضيت بقيود المجتمع، وحاربت كل يوم شهواتها المكبوتة ، وجمالها الفتان وأنوثتها القاتلة ...

ولكنها معذورة لأنها عاشت في مجتمع يقتل ذلك كله ويعتبرها الجانية بأمثاله المحقة من وجهة نظري ، فلم يطمع رجل إلا بضعف امرأة فيقولون في أمثالهم : " الرجل كلب ميريلش إلا هزت إذا الكلبة ذيلها"

- ههههه ميريلش معرفتش تجيبها دي يا وحش ... عجزت الفصحى
- أقول لك جاهل... النصوص التي تستشهد بها سماعية تنقل كما هي ، هذا المثل يؤكده قول الله تعالى: "ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض"
- يعني مش من حقهم يحبوا؟! أنا معنديش مانع يتجوزوا بدل ما سيرتهم على كل لسان وهم يحسبوا محدش عارف حاجة
- تعرف يا فارس أمك هذه جميلة جدا ومن حق أبي أن يحب مثلها لأنها حرة...
- ما هي حرة مين قال إنها عبدة؟!

- الحرة التي أقصدها لا تزني ... أمك كذلك رغم حبها لأبي لكنها لا تزني ، أو تزني الحرة ؟!

جملة رائعة تعلمك معادن النساء ، وعرفت ذلك من حوارتهم على عبر مواقع التواصل عندما اخترقت هواتفهم...

وأبي مغيب عندما عاش واضعا هذه الهالة حوله ... من حقه أن يحب ، ومن حقه أن يتزوج ؛ ولكنه يخاف المجتمع ويخاف علينا من الضياع ، ما من امرأة طلقت بسبب أن زوجها تزوج عليها ، ولكن ليس من حقه ما يفعله عبر مواقع التواصل ويهز صورته أمام تلامذته وأمام نفسه.

فمثل أبي وأمك الآن ممزقون بيننا وبين قلوبهم ورغباتهم وعاداتنا التي خالفت شرعا ، وبين حب أبي لأمي ، هذه الازدواجيات خلفت لنا عاهات وستصل بنا إلى جحر الضب ، نحن الآن نعي أكثر منهما ليتهما يتزوجان

- وأبوك يبقى جوز أمي ؟! بصراحة أنا بحبه يا ريت...
- أتظن أن مثل أبي يكتفي بأمك؟
- أمي برضه صاروخ
- هههه أنت محق ولكن هل تظن أن أمك ستسعد مع أبي؟
- أمي تحتاج إلى حنان واحتواء اتحرمت منه في حياة أبي فما بالك بعد وفاته
- وأبوك أعطى لأمك أموالا وهدايا لم يستطع مثل أبي توفيرها
- يعني إيه؟
- هم علمونا ليس كل ما نتمناه ندركه...

يا عزيزي العدالة الإلهية ليس معناها المساواة ...

يا عزيزي ليس هناك حب إلا في غرف النوم ...

يا عزيزي لنا حقوق كما لهم حقوق...

يا عزيزي فلتسقط قواعد المجتمع التي تتنافى مع الفطرة السليمة...

يا عزيزي ليست سيجارتي ذنبا يضاهي انفصام شخصيتك ...

يا عزيزي أشعل سيجارتك واملأ الجو دخانا أنت أشعلت ناره في قلبي

- يخرب بيتك ده أبوك شكله شافنا
- نعم رأيته ...آه ... كان يتجسس عليّ كعادته رأيته منذ النفس الأول ؛ عذرا أبي على هذه الدموع التى تسببت لك فيها الآن فأنت من أنزفت كبدي دما من أجل أن تفتخر بي في مجتمع مزيف وحاولت أن تصنع مني درعا تذكاريا يشار إليه على أنني تربيتك ونتاج سعيك ، بل أنا أنا ؛ لأنني أنا
- وعذرا لأمك قتلت نفسها من أجلكم ... وقتلتكم من أجل مجتمع ظالم خارج عن الفطر السليمة...

فكـــــــلنــــــــــا

مغيبـــــــــــــــــــــــــــــــــون

مجموعة قصصية للكاتب محمد عبدالفتاح محمد